من الصنائع الايرانية القديمة . ومن اهم ما هو ساع اليهِ اصلاح نظام التعليم . والشعب الايراني من ارقى الشعوب اروميةً فاذا تناول مقومات العمران الحديث الثاني ولم يعبأ بالذين يحاولون ردهُ الى القديم الباني وجرى هو والشعب التركي في هذا المضمار لم تمضِ سنون كثيرة حتى نرى في الشرق الاوسط عمرانًا زاهراً يباهَى بهِ

الشيخ مرعي صبيح

قصة مصرية

٢

اما الست رُقية واولادها فقد لحقتهم المذلة وحُرموا ما تعودوهُ من طيبات الحياة ولكنها جبلت على الشمم فلم تظهر حالها وتمكنت بالقناعة والصبر من الظهور باليسر ولم تشرك في امرها احداً سوى ابن خالتها « الحاج عزب متولي » ، وكان كحيلاً بصيراً بالعواقب ، فتمكن بالشجاعة والحيلة من استرداد عشرة افدنة من الاطيان التي تملكها رقية وضمها زوجها الى ملكهِ واخذ عزب يزرعها ويستخلص ايرادها لرُقية . وكانت لا تذكر زوجها بخير ولا شر وعنايتها منصرفة الى تعليم الولدين ما تيسر من القرآن وقواعد الحساب وتدريب البنت على تدبير المنزل . واخذ الدوّار يُقفر ويغادرهُ المقيمون بالتدريج ولم يبقَ فيهِ الاّ وسيلة الحبشية وزوجها مرجان فقد ابيا هجر سيدتهما وأغلقت المضيفة والمنظرة، وذبلت ازهار الحديقة وجف ماؤها . وكانت رقية تسمع احيانًا اصوات اجانب يذكرون اسم زوجها ويكتبون في اوراق و يتركون لها اوراقًا اخرى ثم ينصرفون فاخبرها الحاج عزب بانهم محضرون من المحكمة المختلطة وقال لها : « ان كنت شاربة من ثدي امك فاقري واجمعي عن هذا الخاسر وردهِ بالقوة الى بيتهِ الذي خرب واولادهِ الذين تيتموا في حياتهِ »

رقية : « كيف اردهُ بالقوة يا حاج عزب ! قوة ربنا فوق كل شيء »

عزب : « لكن ربنا امرنا بالسعي وترك الحبل على الغارب غلط »

رقية : « صحيح يا ابن خالتي لكن مضى زمن طويل والشيخ مرعي على حاله »

عزب : « طيب يا رقية والاوراق النازلة علينا مثل المطر من المحكمتين الاهلية والمختلطة والبنوك واخواجات ارباب الديون بالربا »

رقية : « كل الاوراق التي وصلت الى يدي سلمتها لك »

عزب : « وانا سلمتها للوكيل وناظر الزراعة فتراكمت مثل الهم على القلب ولم يرسلوها الى حضرة البك لان الوكيل نهى عن ارسالها »

رقية : « والعمل ؟ »

عزب : « ما وراء الورق الاَّ خراب الديار »

رقية : « خراب اكثر مما جرى ؟ ان كان كذلك فسافر وسلمهُ اياها يداً بيد »

عزب : « على الرأس والعين ! اعطيني عبد الرحمن لعلَّ الشيخ مرعي يرقُّ قلبهُ ويذكر اهلهُ ومنزلهُ ! لانهُ كان احب اولادهِ اليهِ »

فبكت رقية وقالت : « يا عبد الرحمن قم مع خالك عزب ! »

وفي صباح احد الايام استيقظ مرعي بك على صوت يُنبئهُ بان ضيفاً من الريف ينتظرهُ فنهض وبه اثر الخمار وفرك عينيهِ وخرج الى قاعة الاستقبال بتمطى في «بيجاما» من الحرير وامر بادخال الضيف فاستأذن عليهِ كهل وفتى فلما وقع بصر الحاج عزب عليهِ قال: «صباح الخير يا مرعي يا ابني » . فتنبه البك كأنهُ كان في حلم وقال : « مرحباً بك يا خال عزب انا والله ما عرفتك » فقال عزب مشيراً الى الفتى الذي اخذ يرتجف و يبكي : « وهذا ايضاً ألم تعرفهُ » . فارتجَّ على مرعي بهتة وقال : « يا ولد يا عبد الرحمن من جاء بك الى هنا يا ابن الخاسر ؟ » . ولم يُصب هذا العُتُل في شيء إصابتهُ في وصف نفسهِ ! فارتفع صوت الفتى بالبكاء فضمهُ الحاج عزب الى صدرهِ. ولم يلتفت مرعي الى نحافة ولدهِ وتغير ملامحهِ ورثاثة ثوبهِ ولم يسأل عن بقية اسرتهِ القديمة ولم يخطر ببالهِ واجب الضيافة وكان الكرم شيمتهُ ، بل تناول علبة « سجاير دفريس » وعرضها على الحاج عزب فرفض فقال : « ولماذا حضرتم يا خال » ؟ ولم ينتظر الجواب لانهُ خشي ان يقف اهل المنزل على حقيقتها ، فتعلم زوجتهُ الجديدة ، بزوجتهِ القديمة . فقال « خذ يا خال عزب هذا الجنيه واسبقاني الى قهوة عثمان امام جامع قيسون ربما احضر » فقبل الكهل الميعاد ورفض الجنيه وربما فطن الى الحقيقة . وقام والولد يتعثران في اذيالهما وكانت جفون الولد مبللة بالدموع فلبس مرعي ثيابهُ وخرج في اثرهما فوجد الكهل جالساً في وقار وتفكير والفتى في عمٍّ وألم فسأل عن سبب حضورهما فاخرج الكهل من «دفتيته» حزمة كبيرة من الاوراق فتناولها مرعي وفكها واخذ يقلب فيها نظرهُ فادرك انها اوراق قضائية فقال : « ما هذا يا خال عزب » وامتقع لونهُ واضطرب فكرهُ

فقال لهُ « هذه يا ابني قضايا ومحجوزات واقساط البنوك وطلبات المال واوراق الهندسة وورق نزع الملكية »

فقال مرعي : « (مزع) ملكية ؟ كفى الله الشر » !

فقال عزب : « كل شيء بيد الله »

مرعي : « ومن استلم هذه الاوراق كلها » ؟

عزب : « اهل البيت والخدم وسلموها للوكلاء والنظار »

مرعي : « والعمل يا خال عزب ؟ »

عزب : « اسأل المحامي وها أنا يا ابني احضرت اليك الاوراق وجئتك بولدك لانهُ كان يبكي طوال الايام و يطلب ان يراك . وقد حصل المراد والسلام عليكم » .

ونهض فاخرج مرعي من جيبه عشرة جنيهات ووضعها في منديل وقال لعبد الرحمن : « خذ يا ولد كسوتك » فاخذها الولد ونظر الى ابيهِ بعين جامدة كمن يتبل صدقة العدو مضطرًّا ، وافترقوا

نهض مرعي يحمل الاوراق المؤذنة بخرابهِ وقصد منزل رفيق في « درب العوالم » حيث تعاشرهُ سودانية عجوز مصابة بالصرع وهي التي كان ذلك الرقيع المأفون يصفها بانها « امرتهُ واهل بيتهِ و بيت العيلة » فلما التقى مرعي برفيق السوء وشيطان حياتهِ وجد في اجفانهِ آثار الكرى وعلى وجههِ « كابة الشوارب » وهو يحسو « فنجان مغات » ويقول « ان المغات » يجيي رميم العظام ، فاطلعهُ مرعي على الاوراق فلم يرتبك وقال « المسألة في غاية البساطة غير اننا لا نستطيع مقابلة صديقي ابي راضي بك المحامي الشهير قبل الساعة الرابعة فلنخرج نتغدى اولاً ثم نقابلهُ ونأخذ رأيهُ » . فانطلقا

كان رفيق في ذلك اليوم نادر الكلام ولا عجب فقد كان يضع خُططاً جديدة تتفق مع تغيير الحال . كان المحامي كهلاً سريع الخاطر حوشي الالفاظ فقدَّم لهُ رفيق الاوراق فادرك فوراً سوء حال الموكل الجديد ، وسأل عن سبب صدور الاحكام في غيبتهِ واهمال المعارضة في مواعيدها ، فلم يحر مرعي جواباً فقال المحامي : « إنهُ مستعد لقبول القضايا ليعمل جهده وانهُ بحاجة الى زميل مختلط ليباشر قضايا البنوك ولا داعي للاتفاق على الاتعاب حالاً ولا بأس بدفع مبلغ لحساب الرسوم والمصاريف لان معظم القضايا من اختصاص الاسكندرية » فدفع مرعي بك ما كان معهُ وقام ورفيق،ولم يكادا يخرجان حتى اسرع رفيق بالاعتذار وطلب الى مرعي ان ينتظرهُ بمحل « الحلواني المركي »

فافترقا ولم يقر رفيق بوعده ، فاحرق مرعي من السكاير ما شاء وشرب من الخمر ما ظن فيه تفريجاً للهم ، ثم عاد الى بيته بعد نصف الليل ، وحاول محادثة زوجته فنأت عنه فلاطفها فشاكسته فقبل الخصومة راضياً واضطجع حتى الصباح . . وفي الغد تراكمت طلبات الدار فسدّد بعضها وعجز عن بعض فتخرت له وجيدة واهلها وساقوه بالسنة حداد فقصد بيت رفيق فكتمت جاريته « بشرى خير » خبر وجود سيدها . فقصد بعض معامليه من المرابين واقترض مبلغاً يسد به فوهة المنزل ثم خطر بباله ان يتريض فسافر الى حلوان حيث قضى يومين ثم عاد الى المنزل في اليوم الثالث فوجد به اعلان دعوى شرعية من زوجته وجيدة تطالبه بالنفقة فملكته الدهشة والحدة فدخل عليها وخاطبها : « صحيح يا وجيدة رفعت دعوى نفقة ؟ » فاجابت بلا حياء : « أليس لي حقوق احافظ عليها مثل زوجتك الفلاحة واولادها » ؟

فسألها : « ومن اخبرك ان لي زوجة واولاداً » ؟

وجيدة : « ان رجلاً في سنك ومكانتك لا بد ان تكون له اسرة في بلده وقد اخبرني الذين زاروك في بلدك وقد رأيت ابنك وخالك منذ بضعة ايام »

فقال : « ابني وخالي ؟ »

فقالت : « لا تنكر فقد سمعت الحديث الذي دار بينكم »

فغضب مرعي وملك الغيظ زمامه فكظمه وخرج على قدميه حتى بلغ حانة « سانت جورج » فجلس يشرب لينسى الهموم التي دهمته وتمنى لو يقابل رفيقاً وهو الذي عوده الاختلاف الى تلك الحانة ، ولكن هذه الامنية لم تتحقق لانه كان في شغل منذ اطلاعه على الاوراق فقد عاد بمفرده الى مكتب ابي راضي بك واخبره انه لا يرى بأساً في اشراك محام مختلط ليجلو له غامض الاوراق الفرنسوية فخاطب الاستاذ اسكرديناكس فحضر وكان يونانياً يجيد العربية ذا عين واحدة مشهوراً بحذقه في اسرار قانون المرافعات وحسن بلائه في اجراءات التنفيذ فوضع الاوراق بين يديه بحضور رفيق وقضوا في درسها نحو ساعتين حتى تبين لهم سوء مركز الرجل وان ثمن الاطيان قد يكفي السداد ولا امل امام المحكمة المختلطة الا في التسويف ولكن النتيجة محتمة ما لم يحدث امر خارق ولا بد من توكيل محام بالاسكندرية لعله ينقذ ما يمكن انقاذه من تلك السفينة المشرفة على الغرق

اما رفيق فاوصى المحامي الاهلي خيراً وفتح باب الامل للاستاذ المختلط وانصرف

ليرسم خطتهُ الاخيرة للاجهاز على صاحبهِ وهي التفريق بينهُ وبين وجيده فتحصل على مبلغ حسن ثم يسعى بينها وبين امها واخيها فتخرجهن من بيتها فتحتاج الى من تركن اليهِ فلا تجد سواهُ فيتزوج منها بشروط اولها تنازلها عن نصف الدار ضماناً لحسن العشرة في المستقبل، فبادر الى وجيده وامها في الفترة التي كان مرعي في اثنائها رهين موعدهِ بالحانة واطلعها على حقيقة حال الزوج ونصح لها برفع دعوى النفقة وقادها الى محام شرعي فوكلتهُ الزوجة. ثم ان رفيقاً ايقن باضطرار مرعي للمال واراد ان تكون لهُ يد في الصفقة الاخيرة فسعى حتى اهتدى الى احد المشايخ الذين لا يأنفون الجمع بين التقوى « والعشرين في المائة » ورغبهُ في اقراض مرعي حتى قبل فابقاهُ للفرصة المناسبة . وكان رفيق يختلي في منزلهِ ويأمر « بشرى خير » ان تكتم وجودهُ ولما علم ان ثار خطة الطلاق قد نضجت قصد مرعي بك فلما رآهُ ذلك الاحمق المغرور استغاث بهِ وشكا لهُ فعل وجيده فاصغى اليهِ كمن يسمع جديداً وقال لهُ ان حلّ المسألة بالصلح اسلم عاقبة ما دام لم يعقب منها ولداً

مرعي : « اي صلح يا رفيق بك كيف تقاضي امرأة في بيتي وعصمتي ونعمتي نفقة »

رفيق : « دستور يا بك ! ان البيت بيتها وكونها في عصمتك لا يمنعها من حفظ حقوقها والكلام في نعمتك او نعمتها نقص وعيب »

فظن مرعي ان رفيق مدفوع بالاخلاص فاستسلم اليهِ فقادهُ الى المحامي الشرعي وكيل وجيده فلقيها لقاء حسناً وبدأ يسرد ادلة وجيده وحججها القوية ويستشهد بقضايا نسب لنفسهِ فضل كسبها واشار الى شفقة القضاء على السيدات . وكان رفيق صامتاً كشاهد لا تسرهُ النتيجة ولا تسوءهُ . فاخذ مرعي بسلامة نيتهِ يسرد تاريخ زواجهِ بوجيدة ورفيق يتقلى على الجمر ولا يتكلم فكان المحامي يلين حيناً لطيب عنصرهِ ثم يعود فيشتد بحكم مهنتهِ وكان مرعي يستنجد برفيق فلا يجيدهُ ، ويستشهد بهِ فلا يؤيدهُ ، حتى سقطت جميع حججهِ فاستسلم المسكين للصلح بجميع شروطهِ ومنها الطلاق ومؤخر الصداق ونفقة العدة ومجموع المطلوب ثلثمائة جنيه ولكنهُ اعتذر بالضيق الوقتي فنطق رفيق بعد الصمت الطويل واقترح عليهِ « حسماً للنزاع» الالتجاء الى الشيخ مبروك ليقرضهُ المبلغ المطلوب فقبل مرعي ووقّع على الصلح ثم على سند الدين . ومنذ تلك الساعة لم يعد مرعي الى منزل الحلمية قلباً الى فندق « الضيف الكريم » وارسل في طلب ثيابهِ وهي كل ما يملكهُ من البيت الذي دفع ثمنهُ وثمن ما فيهِ من اثاث ورياش وانفق على ساكنيهِ جملة اعوام ! . .

وكانت ديونهُ قد بلغت خمسة عشر الف جنيه اضاعها في خمس سنين في القمار

وسباق الخيل ونفقات المنزل والزواج والطلاق وافراح الاصهار ومآتمهم ، ومصاريف الاسطبل واثمان الثياب واتعاب المحاماة وفوائد القروض ورسوم المحاكم . فلما تأيدت الاحكام ورفضت المعارضات واستحضرت الشهادات ومضت مواعيد التنبيه والتسجيل وأُطلق ارباب الديون الثابتة وتمت اجراءات النشر وتحولت الدعاوي على قاضي البيوع بالشروط المنصوص عليها في القانون وقائمة المزاد بيعت الارض صفقة واحدة ورسا مزادها على البنك بعد ان حلَّ محل غيره من الدائنين لبقية طول اجراءات التوزيع فبلغ ثمنها مقدار الدين تقريباً ولم يبق للمدين كثير ولا قليل وكان البنك نزع ملكية ارض الست رقية ، ولولا ان ادركها الحاج عزب فاسرع الى الاسكندرية ووكل محامياً في المعارضة سيف « تنبيه نزع الملكية » وفي دعوى « استحقاق العقار » عن الثلاثين فداناً وقدم اعلام الوراثة واوراق المال والكشوف الرسمية وما زال ذلك الربيع الصالح يجاهد ويمد المحامي بالمعلومات ويحرك شفقتهُ على الام والاولاد حتى حكم نهائياً بقبول المعارضة في التنبيه واحقيتها وتثبيت ملكها وبذلك ضمن لها ايراداً ثابتاً يكفيها

وعلم الشيخ مرعي ان جميع ما كان في حوزته من مال ثابت ومنقول بيع بالمزاد وكان رفيق السوء قد تزوج من وجيدة بمجرد انتهاء العدة بعد ان مهد للفراق بينهُ وبين صاحبهِ القديم بقوارص الكلم والقطيعة واقام في البيت الذي اشتراهُ مرعي بمالهِ . وكان مرعي لا يعلم بهذين الامرين فحدثتهُ نفسهُ يوماً ان يقصد بيت مطلقتهِ ليزور حماتهُ ونسيبيهِ « النبيلين » حفيدي الخربوطلي باشا . فخرج اليهِ طاهر واخبرهُ ان « لا يسكن هذا البيت احد سوى الست وجيده هانم حرم حضرة رفيق بك » . فرفع مرعي عينيهِ عرضاً الى نافذة الغرفة التي كان ينام فيها ، فالتقت بعين وجيده ، فحاول الكلام فغص بريقهِ وسمع صوتها تقول للطاهي « اصرفهُ يا عبده واقفل الباب » فلم ينتظر امر الطاهي بل سار من تلقاء نفسهِ يتعثر في اذيال الندامة والخجل ولم يفق حتى سمع الناس تصرخ : « حاسب يا افندي » فاذا هو في منتصف الشارع يكاد يذهب فريسة الترام . فاسرع الخطى وسار بغريزتهِ قُدُماً ليتوارى عن الاعين حتى بلغ باب مسجد عال . وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب فجلس على اول درجات السلم ووضع رأسهُ بين راحتيهِ وبكى ! فلما انهض كان الظلام قد ارخى ذوائبهُ وبدأت الانوار تلقي من اشعتها شباكاً على الكائنات وتملأ فضاء الليل بصور واشباح فسار في طريقهِ يترنح ويتخبط كمن ضلَّ الطريق ، ومازال كذلك حتى بلغ خان الخليلي على غير هدى فذكر السيد فرج ابي الخير فقصد متجرهُ فوجدهُ

مطلقاً فضاقت الدنيا في عينيهِ ، ولم يستطع حراكاً فبصر بمقعد طويل من الخشب العتيق وكان قد بلغ منهُ الاعياء فارتمى عليهِ واستسلم لنوم عميق ، وقد اغفلت العناية عنهُ اعين الحراس ، فلما افاق كان الصبح قد تنفس ، واقبل السيد فرج ورآه فاكرمهُ وسألهُ عن حاجتهِ فافضى اليهِ برغبتهِ في تغيير زيهِ والسفر الى بلدهِ فقام التاجر بواجب المودّة والوفاء . اما الشيخ مرعي فلم يجرؤ على دخول بلدهِ وترجل في شبراخيت وقصد خربتا حيث نزل ضيفاً على الشيخ عثمان الوكيل من اعيانها وكان ممن عركوا الدهر وذاقوا حلوهُ ومرهُ فلم يسألهُ عن شيء ولم يظهر عملهُ بحالهِ بل بالغ في اكرامهِ . وبعد اقامة شهرين طلب مرعي الى الشيخ عثمان ان يكتب في شأنهِ الى الحاج عزب ففعل فسأل الحاج عزب رقية رأيها في ابن عمها وزوجها القديم فلم تقبل مصالحتهُ واصرت على رغبتها في اثبات الطلاق وقالت إن الموت احبُّ اليها من معاشرة هذا المختال الفخور ، بعد ان قطع الرحم ، واضاع التراث واتبع هواهُ ، ، وكسرت شبابها على تربية اولاده . ولكنها تنزل عن خمسة افدنة من ارضها تؤجرها للحاج عزب على ان يؤجرها لمرعي بقيمة المثل . فركب الحاج عزب الى خربتا وعرض الشرطين على مرعي فقبلها وحرر لرقية وثيقة الطلاق وعاد بعد بضعة ايام تحت جنح الظلام الى قريتهِ واقام في بيت ثعلب الدهشان وهو اصغر دور القرية واقصاها وارسل لحيتهُ وقد شابت كل شعرة فيها ، ولو استطاع تغيير اسمهِ لفعل ، اما اولادهُ فكانوا يزورونهُ فيلقاهم كرجل غريب القلب والعين واللسان وقد انطفأ من قلبهِ سراج الحب وتحطم من نفسهِ هيكل الوفاء ! وكان الحاج عزب يزورهُ ويعزيهِ ويساعدهُ في زراعة الارض ويغريهِ حيناً بالمرور بالدوار الذي احتلهُ المالك الجديد فاذا بدا لهُ انقباضهُ قال لهُ «تشجع يا سعادة البك من فات قديمه تاه ومن ترك شيئاً عاش بلاه !» فلا يدري مرعي بك أكان هذا القول عزاءً ام تشفياً ، فلا يجيب عليهِ

واذ كان مرعي ينقب يوماً في اوراق مهملة عثر بعدد جريدة المؤيد الذي نشر فيهِ خبر الانعام عليهِ بالرتبة الثانية فلما اعاد قراءتهُ اخذ يحدق في تلك السطور ويقلب اجفانهُ في الصحيفة الحمراء كأنهُ يستعيد من خلالها ذكرى الماضي ويستحضر اشباحهُ المندثرة . فاذا بهِ يرى فجأة وجه رفيق وكأنهُ يسمع صوتهُ وهو يقول : « لا وسيلة للوصول الى تلك المقامات الاَّ بالرتبة الثانية مع لقب بك . ان ثروتك يا شيخ مرعي ومكانتك بين قومك تحتمان عليك الحصول على الرتبة الثانية واللقب فتخلص بهما من لفظ الشيخ فتصير فوراً سعادة مرعي بك صبيح » انتهى

محمد لطفي جمعه المحامي